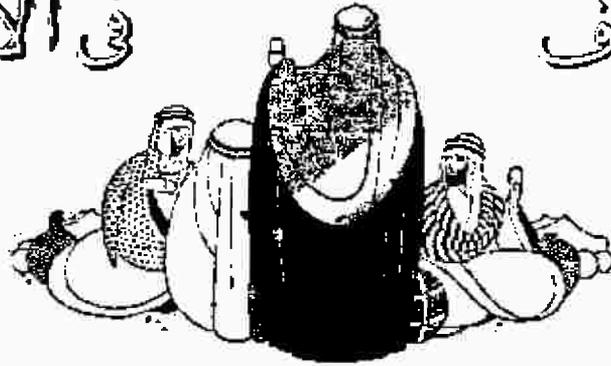


التصوف في الإسلام^(١)



للدكتور احمد غلوش

دعا الدكتور مكلانين عبد كلية العلوم الشرقية بالجامعة الاميركية صديقه الاستاذ احد غلوش الى الفاء محاضرة بالانكليزية على فريق من فضلاء الجالين الانكليزية والاميركية بالقاهرة عن يهتمون بدراسة المسائل الشرقية فاجاب الاستاذ هذه الدعوة فوقف الدكتور مكلانين وقال ان قاعة الدراسات الشرقية كانت حتى الآن انعقد فيها اجناعات لدرس تاريخ اعلام الشرقيين ومناقهم ولكننا في هذه الليلة سنسبح هنا لأول مرة ورجلاً مصرياً مسلماً متفقاً ثقافة اسلامية عالية وحاصلاً على درجات عليا شرفية من الجامعات الاوربية والاميركية وهو الدكتور احد غلوش فهو سيحاضرنا الآن في موضوع اسلامي بحث يتعلق بالطرق الصوفية في الاسلام ويشرح لنا مراميها وأغراضها ولشأنها فقد آن الاوان ليتبادل سكان هذا الوادي الرأي فيها لديهم من صوف الثقافة الروحية والعلوم والمعارف الدينية ويقدم كل فريق منهم الى الآخر احسن ما عنده من ذلك حتى يسود التفاهم بين الجميع مع احتفاظ كل منهم بأرائه الخاصة . قال ونحن معانثر الفريقين كثيراً ما سمنا بوجود الطرق الصوفية بكثرة في هذه البلاد وسمنا بتلشاخ والفقراء والدرابوش ولكننا في الواقع لا نعرف من حقيقة امرهم شيئاً . وقد تكفل صديقتنا الدكتور احد غلوش الذي اعتنق المبادئ الصوفية ومدارس رياضاتها الروحية بان يشرح لنا ما يهنا ان نعرفه منها . ثم دعا المحاضر الى منصة الخطابة فتقدم وبدأ كلامه بشكر الجامعة الاميركية التي اتاحت له هذه الفرصة لتحدث عن موضوع الصوفية في الاسلام ذلك الموضوع الذي كثيراً ما اخطأ بهم الفريقون والمتذمرون . واستمر في الشرح حتى وفي الموضوع حقه

(١) ترجمة المحاضرة التي القاها بالانكليزية بقاعة الدراسات الشرقية بالجامعة الاميركية بالقاهرة الدكتور

احد غلوش ورئيس جمعية منه السكرات بالقطر المصري

من البيان. وقد استغرق لقاء المحاضرة ساعة كاملة ونحن نشكرها ترحمها لفائدة القراء

انه لاجل معرفة حقيقة التصوف او اي علم آخر ينبغي عملاً ان يلجأ في ذلك الى المتصوفين انفسهم او اصحاب ذلك العلم فهم اقدر من سوامم على تجلية الموضوع تجلية صادرة عن خبرة لا يشوبها زيف ولا تحريف واما نقل العلوم عن غير اهلها فقلما يوصل الى ادراكها على حقيقتها ولقد قرأت عدة مصنفات لفضلاء المستشرقين من انريين فالفيتها في الكثير من مواضعها بعيدة عن محجة الصواب فمن ذلك مثلاً ما يزعمونه من ان الصوفية والتصوف دخيلان في الاسلام غريبان عنه وانها اما جاء بها الاعداج من الفرس قصداً منهم الى اشربة الدين وزعمون ايضاً ان اصل التصوف يرجع الى العلوم الآرية من الفارسية والبوذية ونحوها ويقولون غير ذلك من الزاعم التي لا اصل لها

فالتصوف وان كان لبعض الفرس المسلمين شأ كبير في تدوينه رحل لوائه فهو لا يمت الى المبادئ والمذاهب الآرية او البوذية بأذن سبب. وشأن ما بين الناسك البوذي الذي يزعم انه يملك طرق خاصة من الرياضة وتمدب النفس بشحى عنه في النهاية وصف الآدمية ويصح بوذا بنفسه أي إنهم قد أخذت عنه صفات البشرية. وبين المسلم المتصوف الذي يبد الله وحده طبعاً لاحكام الاسلام ومبادئ الدين الخفيف ثم هو يقوم فوق الفروض المقررة بأنواع من الرياضات الروحية المشروعة السنونة أساسها الزهد والورع والتقوى وغايتها ان يصير بها أهلاً لتفوز برضوان ربه والدخول في حضرته وتذوق طعم الإيمان بالوجدان

وكبيراً ما خلط المستشرقون بين المتصوفين وبين المشعوذين عن ياقون بما يشبه السحر وضروب الاحاجي ويعرفون عندهم باسم اصحاب الاسرار الخفية Mysticism وترجع أسباب هذا الخلط الى ان المتصوفين كانوا ولا يزالون يعرفون بأهل الباطن وأرباب الاسرار الدونية فظن أولئك المستشرقون ان أسرار الصوفي هي أمور خفية يحرم من على حجبها عن أعين الناس كما هو الشأن عند اهل الشعوذة (Mystics) مع ان حقيقة معنى الاسرار عند الصوفيين انما هي الحقائق التي تطوي عنها ظاهرات الاشياء والحكمة التي يتذوقونها من اسباب الاحكام والنشائم فهذه الاذواق والواجب لا يستطيع الصوفي ان يبر عنها لاحد لا لانه يريد احفظها عن الناس بل لانها فوق تناول الوصف والبيان إذ هي أمور ذوقية لا تعرف الا بالذوق والوجدان .

ومثلها كمثل حلوة سكر القصب ونحوها مما لا سبيل الى إدراكه بتير الذوق

ولئن كان من السهل على التقية والمحدث وكل عالم ان يشرح لغيره الفقه والحديث وانظم الذي أحابه فانه من السبر الثمندر ان يبين لامة الناس أسرار الانوار القدسية والفيوضات

الربانية التي تفيض على قلبه ثمرة عبوديته واقباله على ربه ورياضاته انروحية على انه بما يؤسف له جد الاسباب وجود طوائف من الناس في الشرق ينسبون انفسهم الى الطرق الصوفية وما هم منها في شيء وهؤلاء قد باتون بضروب من المهمة والتسما والابحار الذاتي وبركون الى التنعيم والطوالع والحلجر وادعاء معرفة الغيب فكانوا بذلك نكبة على المتصوفة وسبياً دعا بعض المستشرقين الى الحملة على طريق التصوف كما دعا آخريين الى القول بان التصوف ليس في شيء من الدين . يدان من يدرك سنة النحو لا بد ان يعرف انه كثيراً ما يوجد الى جانب النباتات النافعة والاعشاب الصالحة حشائش اخرى تنمو حولها ولا بدوحة من استئصالها حتى لا تهدو على النبات الطيب فتند عليه امره

والن كان كل متصوف لا بد ان يستمد قواعد سلوكه الروحي من مبادئ الاسلام واداليه الصحيحة فهناك فرق كبير بين المسلم الصوفي والمسلم العادي ذلك بان ايمان الاول ايمان محقيقي ذوقى في حين ان ايمان الثاني ايمان يظن ان يكون تقيداً ورائياً منحدر اليه من الآباء او جاءه من طريق التلقين او التعليم او اصابه بحكم الوسط والبيئة التي يعيش فيها دون ان يعرف السر في ضرورة اعتناقه لهذه او تلك من المعتقدات الدينية التي لا بد منها لنجاته في الآخرة . وقد يظن انقلب فخامه الشكوك والريب في كثير من هذه المعتقدات ويظن العقل يطالب صاحبه بوضع حد لها والتخلص منها . ولهذا كان لا غنى لسالك طريق التصوف عن شيخ خبير بمفاوز الطريق المؤدي الى تذوق حلاوة الايمان والاطمئنان الى صحة السير على ان يكون عنده المرشد او الخبير هو الآخر قد سلك طريق التصوف على يد شيخ آخر سبق له سلوكها واصبح قادراً على هداية غيره اليها كراكب البحر يريد الوصول الى بلده فانه يبيد فلا مندوحة له من الاسترشاد برهان منير يقدر على ان يقود السفينة وركبها الى ذلك البلد في أمن وسلام . ومن ثم نشأت طائفة مشايخ الطرق والمسلكين فيها لارشاد المريدين الى الصريق حتى لا يضلوا السبيل . وكان أطباء الاجسام لا بد من الاستعانة بمخبرتهم على شفاء العليل والاسقام فكذلك كان لا بد للمرضى القلوب من الاسترشاد بالمشايخ للتخلص من امراض القلوب

ولا بد للمريد الوصول الى الله تعالى عن طريق التصوف من مجاهدة نفسه رهنفية باطنه من ادران الشهوات الحيوانية والملاذ الجسمانية فضلاً عن البعد كل البعد عن الوقوع في الذنوب والخطايا مما نهى عنه الشارع الحكيم وذلك لا يتم له الا بارشاد شيخ طارف بامراض القلوب وكيفية تطهيرها من بوائق الملاذ والشهوات وبذلك يتم للمريد اكتساب المعارف الربانية التي يتهدي بها قلبه ويطنش خاطره ويكن باله اذ يشعر شعوراً باطنياً انه قريب من حضرة مولاه ولا يمكن البتة الحصول على شيء من الحكمة الالهية والاسرار القدسية الا بصفة القلب

من الحقايق الدينية حتى تتجلى بهذه التصفة مرآته وتصير بحيث تتعكس عليها الانوار الروحية والفتوحات الربانية

وعند المتصوفين ان الانسان لم يخلق في هذه الدنيا حبساً ولا صدفة وانما خلق لغاية سامية وان جسمه وان كان خصباً ارضياً فان روحه شريفة علوية وان جسمه وان كان حيفى بجوته فان هذه الروح ستبقى بعد الموت خالدة الى الابد فاذا ما تطهر المرء في بوتقة الزهد والتشوي من ادران الشهوة والحظوظ العاجلة الثافية وسلك سبيل الرياضة الروحية الشرعية فانه ليلتح بذلك اسمى مراتب الرقي الباطني ويصبح وقد تحولت صفاته الى ما يشبه صفات الملائكة فلا يرى سعادة ولا هناءة ولا غبطة الا في عبادة الله والتسبيح بحمده فاذا اعطاه شكر واذا ابتلاه صبر ويصبر ولا هم له في الدنيا الا طاعة مولاه حتى تصح هذه الطاعة سجية له وغريزة فيه لا يفك عنها بأي حال من الاحوال فلا يلبث المرید أن يرى في كل ما امره الله به حكمة خفية سامية ويرى مثل ذلك في كل ما نهى عنه الدين وعند ذلك يدرك السالك معنى قوله تعالى في القرآن الحكيم « واتقوا الله ويطعكم الله »

وقد تطور التصوف في الاسلام على مدى الاجيال حتى صار علماً قائماً بذاته يسترشد به الخلق الى سبيل الحق وتحول به صفاتهم البشرية الى صفات شريفة ملائكية ويتذوقون به طعم الايمان بالقلب والوجدان

وقد بدى بتدوين هذا العلم وتهديت حواشيه وانظمت مبادئه ورثبت آدابه حوالي النصف الثاني للهجرة النبوية أي نحو عام ٧٦٠ للميلاد . ومع ان ابحاثه واسعة النطاق فيمكن حصرها في ستة موضوعات او مباحث عامة وهي معرفة الانسان نفسه ومعرفة الله تعالى ومعرفة حقيقة الدنيا ومعرفة احوال الآخرة ومراقبة النفس وايقاد حب الله على كل ما سواه

ولما كانت هذه الفرصة لا تتسع امام شرح هذه المباحث كلها او بعضها فحسبي ان اتحدث عن التصوف اقلية حديثاً مجملًا يجمع بعض ما تفرق من اطرافه الى ان نهيًا الفرصة لشرح مباحث تفصيلًا . ولابد بكلمة التصوف ومن اين جاءت فأقول : ان هذه الكلمة دخيلة على اللغة اعني انها ليست عربية الاصل ولم اقف في كتب الصوفية المتقدمة على رأي قاطع في اصل اشتقاقها . ففي المنقرات للامام الحليد وقوت القلوب لابن طالمب المكي وعوارف المعارف للامام السهروردي والمنقذ من الضلال للامام ابي حامد الغزالي — وهذه امهات كتب الصوفية — نجد ان هؤلاء الائمة جميعاً كانوا في شك من حقيقة تلك الكلمة وقد ذهبوا في امرها مذاهب شتى دون ان يقطعوا بسحة ما ذهبوا اليه . وعندهم انها قد تكون مشتقة من الصفاء لان المتصوفين بدأ يورث على تصفية بواطنهم من الاعواء والشهوات . وانما من التصفية لان الله تعالى تولى تصفية قلوبهم من حظوظ

الدنيا . واما من الصوف لانه كان الغالب في لباسهم تتفضهم وزهدهم في الناعم من الثياب وأما من الصفة (بضم الصاد وتشديد الفاء) وأصحاب الصفة قوم من اصحاب رسول الله زهدوا في نعيم الدنيا وآثروا الله ورسوله والدار الآخرة ونهم نزل قرآن في مديهم واظهار فضلهم . وليس في عدم قطع أئمة الصوفية في امر تسمية طريقهم ما يظن في جلال قدرهم قنهم قوم علميون يبأون بالاعمال دون الاقوال ويهتمون بتحقيق المسببات دون التمولد على اصل الاسماء وقد خطر لي بمد طول التفكير ان من الراجح ان تكون كلمة التصوف مشتقة من كلمة تيوصوفية اليونانية التي كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحي يشقهُ الفسك والزهاد السالفون قبل الاسلام بعدة قرون فكانوا يتأون بجانبهم عن الدنيا وبلجأون الى أنواع من الرياضات الروحية والعبادة مما اقتبسوه من انبيائهم ورسلمهم جبا في التغرب بالروح من خالقهم وتلقي الحكمة والمعارف القدسية منه تعالى . ويؤيد هذا الرأي ماورد في دائرة المعارف البريطانية من ان التيوصوفيين كانوا معروفين من ازمان بعيدة وكانوا يزهدون في الدنيا ويقطعون الى النك والعبادة واستزال الحكمة الالهية على قلوبهم وان هذه الكلمة مركبة من لفظين تركيباً مزجياً وهما لفظ تيو (Theo) وسناء الله و (Sofia) صوفيا ومعناه الحكمة . اي ان اولئك القوم كانوا يزهدم وعبادتهم يتطلون الى اكتساب الحكمة الربانية من الله رأساً فهناك تشابه كثير بينهم وبين المتصوفة من حيث اتحاد الواسطة والغاية

ولكن ما هو التصوف ؟

ومها يكن من خلاف في امر اشتقاق كلمة التصوف فانه لا خلاف التة بين أئمة الصوفية في حقيقة معنى التصوف فقد اجمعوا على انه الطريق الوحيد السلطاني الذي يؤدي الى اكتساب المعارف الالهية والتلوحات الربانية والافواق والمواجيد الباطنية مما يزيد كافة الشكوك والريب والصعوض والاهام من دخيلة النفس فيما يتصل بالكثير من المستعدات الدينية التي لا بد من الايمان بها . ومنها مثلاً عقيدة القضاء والقدر التي تدل على ان الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء مع اعتقاد ان المهتدين يؤجرون بدخول الجنة وان العصاة يدخلون النار فان العقل قد يظل حائراً في سبيل التوفيق بين الامرين . وهناك مسألة الايمان بالبعث والنشور بعد الموت والثناء وهناك الاعتقاد بخلق الملائكة والجان والشياطين وهذه مخلوقات لا مثال لها من المنظورات والمحسوسات . ثم مسألة خلق البشر من طين وتراب وخلق الطين والتراب من لا شيء . وهناك مسألة النبوة والرسالة وان الله تعالى يكلم المصطفين الاخبار من عباده وينزل عليهم الوحي من سماه . فما هذا الوحي وكيف يكون . وما هي تلك النبوة وكيف تكون وهناك مسألة المسائل وهي

الاعتقاد بوجود الله تعالى وجوداً أزلياً وبدئياً قبل ان يوجد الزمان والمكان فالعقل الراجح
 والمنطق الصحيح الواضح يوجبان هذا الاعتقاد حتى صكل طافل والإيمان به في غير ما ورد
 ونسكن الإيمان بالنسبة تتفاوت درجاته فقد ينقص الى حد ان يكون ظناً او اقل من الظن
 تبعاً للمناسي التي يرتكبها الانسان فله وكثرة وقد يزياد الى حد ان يكون عياناً وشاهدة
 وهذا تبعاً لمقدار ما يقوم به المرء من طاعة الله والاقبال على عبادته صفواً وقوة. وقد دلت سير
 المتصوفين الأولين السابقين من وصلوا الى الله تعالى وصوروا مشاهدته ومعاينة يجعلان عن الوصف
 ويدققان عن العبارة على ان هذه الطريقة هي السكيفة حقاً بالفضاء على كل غموض وابهام
 في امور الدين وعقائد الايمان كما قال سيد المتصوفين علي ابن ابي طالب لو كتب لي النطاه
 ما ازددت يقيناً وان هي الا رياضة روحية مباركة ورحلة في طريق السودية موفقة حتى يسليج
 امام قلب السائر فيها نور اليقين فمبين اليقين لحق اليقين حيث تنهزم من امام بصيرته ظلمات
 الحيرة والقلق ويمتلئ الباطن عرفاناً وإيماناً بكل ما نطق به الرسل الكرام رجدوا به من عند الله
 وعند الصوفية ان دين الله تعالى واحد في جميع العصور والاجيال ولم يكن في أي زمن سبق
 سوى الاسلام واعني به التسليم المطلق والخضوع التام لاوامر الله تعالى وما جاء به المرسلون
 من الشرائع والاحكام وان اختلاف الاديان لم يتناول العقائد قط وانما يتناول اعمال العبادات
 وكيفياتها وطقوسها تبعاً لحاجة العصر واماغيب الايمان فالاديان جميعها من حيث اصولها لا تباين
 بينها ولا خلاف. اساس ذلك الاعتقاد بوجود الله تعالى ووحدانيته واتصافه بكل ما يتصور من
 صفات الكمال ونزاهه عن كل نقص يحظر على البان والاعتقاد بملائكته وبكبره المنزلة ويرسله
 المرحلة وباليوم الآخر وهو يوم الحساب والفضاء خيره وشره من الله. ولست العبادات في
 جميع الاديان مطلوبة لذاتها من صلاة وزكاة وصوم وحج وقربة وانما هي وسائل لا بد منها
 للتدين كما يصل بها الى تطهير فنه من أدوان الشهوات تطهيراً ترقى به الروح الى اقرب من
 الله ودخول الجنة فهي تشبه بالعلاج الذي يتداوى به الجسم من الامراض. وكما ان تماطي المريض
 لما يصفه له طبيب الاجسام من علاج يسهه وحده دون الطبيب الذي يماجحه اذ المريض هو
 الذي سينال به الشفاء دون الطبيب فان الله تعالى غني بذاته عن عبادة عبادهم فهم الذين سيجنون
 وحدهم قائدة هذه العبادة

ولما كانت النفوس البشرية محكم تكويتها وخلفتها الحيوانية بحاجة الى تطهيرها ومداواتها
 من آثار الملل الشهوانية حتى تصفو وترتقي وتضمر أهلاً للعبادة الى ربه وخلقتها راضية مرضية
 فان المتصوفين هم اشد عبادة الله تمكاً باحكامه ووامره انقردة في التريفة كما اني بها الرسول
 من عند الله فمن قال ان الصوفيين اهل تهريط في التمسك باهداب الشرائع الاطرية فقد ظلمهم

وافترى عليهم فاجاء في كتب المستشرقين من الاوربيين عن تهاون ارباب الطرق الصوفية برسوم الثرية مخالف الواقع بيد عن الصواب

والحق ان التصوف لا يكتفي مثل سائر المذاهب بالقيام بظاهر العبادات المنسوبة في الدين بل ينظر بنور البصيرة الى ما تطوي عليه الرسوم والاحكام من حكمة واسرار فيفحص لانتقاطها واستخراج هذه الاسرار من بواطنها ومكانها كما يفحص السباح الماهر لانتقاط الاصداف من قبان البعار لا رغبة في الاصداف ذاتها بل يستخرج منها الجواهر والؤلؤ التالي فالصلاة مثلاً عبادة مطلوبة لانها تنهي عن الفحشاء والمنكر وفيها ذكر الله وذكر الله أجل شأنًا واكبر وهي لا تحقق هذا الغرض اذا كان المصلي لا يؤديها وهو حاضر القلب لا يفكر في اثباتها الا في ادائها على الوجه الاكمل. فالتصوف يحرص كل الحرص على الفوز باسرار الصلاة على هذا الوجه فلا يصلي وهو شارد الفكر ينصرف بقلبه في خلالها نحو السوق ومصالح الدنيا من مال أو ولد. وكذلك الشايف في سائر العبادات المفروضة فان الصوفي يعرف ما تطوي عليها من حكمة واسرار فيحرص على بلوغها ويحذر من كل ملاينة تؤدي الى ضياعها. ولم يشفق المتصوفون على عوام المسلمين حين يصلون وهم عن صلاتهم ساهون فلا يقدم قدامها على هذا الوجه أجرًا فضلًا عن تضييعهم من الفحشاء والمنكر وهذا الذم من المسلمين عن اسرار العبادات وعدم الحرص عليها وثمة الحذر من تقويت حكمتها عليهم كان السبب الاكبر في نظر المتصوفين لما اصاب المستوى الروحي في اليهود المتأخرة للاسلام من الضعف والاعطاط

التصوف من الناحية التاريخية

وقد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة الى التصوف في صدر الاسلام وعدم ظهور هذه الدعوة الا بعد عهد الصحابة والتابعين. والجواب عن هذا انه لم تكن من حاجة اليها في العصر الاول لان اهل ذلك العصر كانوا اهل وريح وتقوى وأرباب مجاهدة واتبال على السادة بطيختهم وبحكم قرب اتصالهم برسول الله فكانوا يتسابقون ويتبارزون في الاقتداء به في ذلك كله فلم يكن ثمة ما يدعو الى تلقينهم علماً يرشدهم الى امرهم قائمون به فعلاً وانما مثلهم في ذلك كمثل اسربي الفقع يعرف اللغة العربية بالتوارث كبراً عن كبر حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والقطرة دون ان يعرف شيئاً من قواعد اللغة والاعراب والنظم والفريضة فقل هذا لا يلزمه ان يتعلم النحو ودروس البلاغة ولكن علم النحو وقواعد اللغة والصبر تصنع لازمة وضرورية عند تبلل اللسان او لمن يريد من الاجاب ان يتقها لينتفع بها او عندما يصح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كفية العلوم التي نشأت وتألقت على توالي

الصور في أوقاتها المناسبة. فاصحابة والتابون وان لم يتسموا باسم المتصوفين قلتم كانوا صوفيين ملاً وإن لم يكونوا كذلك أيضاً. وماذا يراد بالتصوف أكثر من ان يبش المرء لربه لا لنفسه والحلي بزهد وملازمة أسباب العبودية والاقبال على الله بالروح وانقلب في جميع الاوقات بما وصل به الصحابة والتابون من حيث الرقي الروحي الى أعلى الدرجات فهم لم يكتفوا بالاقترار بمبادئ الإيمان والقيام بفروض الاسلام بل قرنوا الاقترار بالذوق والوجدان وزادوا على الفروض الايمان بكل ما استجبه الرسول من نوافل العبادات وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرمات حتى استنارت بصائرهم وتفتحت ينابيع الحكمة في قلوبهم وفاضت الاسرار الربانية من جوارحهم. وكذلك كان شأن التابعين وتلاميذ التابعين وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الاسلام وخيرها على الاطلاق. وقد جاء عن رسول الله وخاتم الانبياء قوله خير القرون قرني هذا قلدي يليه والذي يليه

فلما تقدم العهد ودخل في حظيرة الاسلام أمم شتى وأجناس عديدة وانتمت دائرة الارشاد والتدوين في مختلف ميادين المعرفة والعلوم فمن ثم وجب تقسيم السبل وتوزيعه بين ارباب الاختصاص فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الاول علم الفقه وعلم التوحيد وعلوم الحديث وأصول الدين والتفسير والمنطق ومصطلح الحديث وعلم الاصول والفرائض (الميراث) وغيرها وغيرها. وحدث بعدها الفترة ان أخذ التأثير الروحي يتضاعف شيئاً فشيئاً وأخذ الناس يتناسون ضرورة الاقبال على الله بالعبودية بانقلب والهمة مما دعا ارباب الريضة والزهد الى ان يعملوا هم من حاجتهم أيضاً على تدوين علم التصوف وثمرات شرفه وجلاله ونضله على سائر العلوم. ولم يكن ذلك منهم حاجتاً على انصراف انظارهم الاخرى الى تدوين علومهم كما يظن ذلك خطأ بعض المستشرقين بل كان كما يجب ان يكون سداً للتفص واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط مما لا بد منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والنسوى

وقد بينت في السرفا الاوّل اصول طريقهم على ما ثبت في تاريخ الاسلام تلامساً عن اللقاءات الاعلام انما حدث في العام الاول للهجرة ان اجتمع بضعة عشر رجلاً من المهاجرين ومثل ذلك من الانصار من اهل المدينة وتفاخروا بينهم ان يزهدوا في الدنيا وليسوا الزائل ويقبلوا على الله والدار الآخرة ويشغلوا جميع اوقاتهم ولا سيما في اوقات الحر والسق بصنوف العبادات حباً بالله وتقدوا برسوله فكان هذا التقاسم بمنزلة عهد قطره على انفسهم لله لا مناص لهم من الوفاء به والى كانوا آمين وذلك ما يسمى بالهد بين اهل الطريق الى الآن. وكان أساس زهدهم في الدنيا قول النبي صل الله عليه وسلم «القدر غفري» ومن هنا جاءت التسمية

التي أطلقوها على أنفسهم ومن دخل في طريقهم وسلك صيلهم وهي (الغزاة) فالواحد منهم كان ولا يزال يسمى بالفقير ومعنى الفقير عندهم ليس من عو بحاجة الى مونة الغير بل معناه الفقير الى رحمة الله المستفي به عن الخلق جيداً

كذلك ثبت عندهم ان النبي لئن أصحابه ذكر لا اله الا الله جماعة وفرادى فأما تلقينه لأصحابه جماعة فقد رواه شداد بن أوس في حديث صحيح قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام هل فيكم غريب ؟ يعني من أحل الكتاب قلنا لا يا رسول الله فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلق الياق وقال ارفعوا أيديكم وقولوا لا اله الا الله فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا لا اله الا الله ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أبعثوا فمن الله قد غفر لكم . وأما تلقينه صلى الله عليه وسلم لأصحابه فرادى فقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله دلني على أقرب الطرق الى الله عز وجل وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله فقال يا علي عليك مداومة ذكر الله عز وجل سرّاً وجهراً فقال علي كل الناس ذا كرون يا رسول الله وإنما أريد ان تخصني بشيء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي ان أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا اله الا الله الى آخر الحديث الشريف . فهذا اصل سند القوم في تلقين الذكر الى اليوم وهم يرون من فوائده ارتباط القلوب بعضها ببعض الى رسول الله وان ما يحصل للريد الصادق اذا دخل في سلمتهم بهذا التلقين ان يكون اذا حرك به حلقه لسانه جاوبته ارواح الاولياء من شيعته الى رسول الله فمن لم يدخل في طريقهم بالتلقين فهو غير ممدود منهم ولما يفتح عليه بما فتح به عليهم

وبروي ان ابا بكر الصديق اول الخلفاء الراشدين كان يتولى قيادة فريق من اولئك الغزاة كما ان علياً بن أبي طالب بن عم النبي ورايع الخلفاء كان يقود فريقاً آخر. وبعد وفاة أبي بكر أخلفه في طريقته سلمان الفارسي أحد كبار الصحابة من أهل فارس وبعد وفاة علي تولى خلافة طريقته الحسن البصري وكان كل منهما يسمى بالخليفة ولهذا صار يطلق اسم الخليفة الى يومنا هذا على كل شيخ من مشايخ الطرق الصوفية

وبمسك المتصوفون في اقبالهم على الله بالهمة وصدق السبودية، بما جاء في القرآن وهو قوله تعالى :

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال أتلفتوها ونجارة تحشون كنادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فماتوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الظالمين »

ولهذا اوجب الفقهاء اي المتصوفون على انفسهم ان يكونوا في جميع الحالات على قدم الاستعداد للتضحية بهذه النصالح الدنيوية كلها في سبيل قيامهم بحق عبودية لله وحده فلا تطلبهم تجارة ولا بيع ولا اي منافع اخرى من ذكر الله وعبادته وامنين نصب اعينهم الغرض الاساس من خلقهم ووجودهم في هذه الحياة الدنيا وهو ما جاء في قول الله تعالى في القرآن وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون

وقد دل تاريخ هؤلاء القوم على ان عمدتهم في التقرب الى الله فوق قيامهم بالترويض عليهم في الاسلام التزامهم اذكاراً واوراداً اكل صباح ومساء وأهم هذه الاذكار ذكر لا اله الا الله ثم الصلاة على النبي ومعاها استنزال البركات السيموية الربانية على روحه صلى الله عليه وسلم وعندهم كما ثبت بالتجارب والممارسة ان لذكر الله باللسان مع حضور القلب وبالكنية المخصوصة المتفق عليها لدى شيوخهم وطوائفهم اثر كبيراً يحجز القلب عن وصفه في تعضيه اباطن وتور القلب بالانوار والفتوحات الربانية كما ثبت مثل ذلك للصلاة على النبي والمسلون مأمورون في القرآن بهذه الصلاة وهي فرض عين على كل مسلم صواباً كان او غير صواب وانما المتصوفون يكثرون منها جهد الطاقة لما لها من الاثر العظيم في جلاء مرآة القلب وصفاء الروح صفاء عجيماً مظهره الاكبر تلك حب الله ورسوله من صميم نفوسهم

وأما تسميتهم بالمتصوفين فلم تحدث او بالاحرى لم يرد لها ذكر في كتب التصوف المتقدمة الا بعد عصر الخليفة الامون حايح الخلفاء الباسيين (١٩٨ هجرية او ٨١٣ — ٨٣٣ ميلادية) وقد كان ذلك العصر ازهر عصور الادب العربي وفيه توفرت العرب على نقل العلوم والفلسفة الاجنبية. والظاهر انهم اتقوا فيها بكلمة نيوصوفية يونانية فمزجوها وتحتوا منها اسماً مرعياً أطلقوه على جماعة الفقهاء فكان هذا الاسم هو التصوف لان كلمة الفقهاء لم تكن وافية في ذاتها في الابانة عن المعنى الذي يتميز به المتصوفون عن غيرهم من المسلمين وقد معنا الى بيان ذلك من قبل وأما كلمة الصوفية وكلمة الصوفي فهما كذلك منحوتتان من نفس كلمة نيوصوفية المتقدم ذكرها وقد اطلقت الاولى اي الصوفية على العلم نفسه والصوفي على من تحققت جدا العلم وتلبس به. واما كلمة المتصوف والتصوف فقد استعملت الاولى منها للدلالة على السالك في هذا الطريق الاخذ في اسباب التحقق به واستعملت الثانية (التصوف) على سلوك الطريق

وقد كان تأسيس اول طريقة نظامية من الطرق الصوفية الصريفة انطوية مؤسسها الشيخ علوان في سنة ١٤٩ هجرية (٧٦٦ ميلادية) وبعد ذلك توالى انشاء الطرق الاخرى بتوالي القرون وكانت كل واحدة منها تسمى باسم شيخها ومؤسسها. وقد يمدد اليوم اعداد الطرق الموجودة الآن كلها لكثرتها. فتجزىء الآن بشكر اشهرها وهي : —

اسم الطريقة	مؤسسا	تاريخ تاسيسها
١ الطوازية	الشيخ علوان المدفون بجده	١٤٩ هـ - ٧٦٦ م
٢ الادهمية	الزاهد ابراهيم بن ادم د بدشق	١٦٦ هـ - ٧٧٧ م
٣ البسطامية	الامام ابو يزيد البسطامي د جبل بسطام	٢٩١ هـ - ٨٧٤ م
٤ السقاظية	الامام سري الدين السقظي المدفون بخداد	٢٩٥ هـ - ٩٠٧ م
٥ الخيلانية	سيدي عبد القادر الخيلاني د	٥٦١ هـ - ١١٦٥ م
٦ الرقاظية	سيدي السيد احمد الرقاظي د	٥٧٦ هـ - ١١٨٦ م
٧ السهروردية	الامام شهاب الدين السهروردي د	٦٠٢ هـ - ١٢٠٥ م
٨ الشاذلية	سيدي ابو الحسن الشاذلي الفصير بالبحر الاحمر	٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م
٩ المولوية	سيدي جلال الدين الرومي قونية	٦٧٢ هـ - ١٢٧٣ م
١٠ الاحدية	سيدي احمد البدوي طنطا	٦٧٥ هـ - ١٢٧٦ م
١١ التقشبنديّة	سيدي بير محمد تقشبندي فصر عرفان	٧١٩ هـ - ١٣١٩ م
١٢ السمدية	الامام سعد الدين دشق	٧٣٦ هـ - ١٣٣٥ م
١٣ اليخاشية	سيدي الحاج يخناش كيرشر بالباينا	٧٥٦ هـ - ١٣٥٧ م
١٤ الخلوتية	سيدي عمر الخلوتي قيصريّة	٨٠٠ هـ - ١٣٩٥ م
١٥ البرهامية	سيدي الحاج برهام انقره	٨٧٦ هـ - ١٤٧١ م
١٦ البكرية	سيدي ابو بكر الوفاقي حلب	٩٠٢ هـ - ١٤٩٦ م
١٧ الخلشانية	سيدي ابراهيم الخلشاني القاهرة	٩٤٠ هـ - ١٥٣٣ م
١٨ الجالية	سيدي جمال الدين اسطانبول	١١٦٤ هـ - ١٥٧٠ م

فهذه الطرق الصوفية المشهورة وكثير غيرها مما لم نذكره ليس من خلاف بينها من حيث الاسس والمبادئ الاصلية وأما الفرق في نوع الاذكار والاوراد التي يواطب عليها المريدون من اتباع كل طريقة منها فقد يفتح الله تعالى على واحد منهم بطريق الالهام ويؤتي حظه كبراً من الانوار القدسية فيكشف بهائدة ذكر اسم معين من اسماء الله الحسنى فيكون ذلك سبباً نو اساساً لانشاء طريقة جديدة مستغنة في الواقع من طريقته الاصلية ومن ثم كان تعدد الطرق الصوفية على تقادم العصور والازمان

وليس في الامكان ان تأتي على تبيان مختلف الاذكار والاوراد وصنوف الرياضات ومدارك السلوك لدى ارباب الطرق المتنوعة وحسب ان اصف لحضراتكم بالايجاز المراحل التي ينظمها اتباع الطريقة الخلوتية وقد قدماها بنفسها بتوفيق الله وبارشاد شيخني الدارف بالله سيدي عبد الله بن محمد

البناء المدنون في الاسكندرية قدس الله سره وهذا الوصف ينطبق في مجرعه على حال الطرق الاخرى - فاقول:

طريق التصرف في سلوك الى الله

يبدأ سلوك هذا الطريق باستئثار رغبة ملحة تستولي على القلب تبحث بها في باطن المرء داعية قوية نحو تذوق الايمان بالوجدان وعدم الوقوف عند حد التصديق او اليقين الذي حصل عليه بالتوارث او بالاستدلالات المنطقية والعقلية فما أبعد الفرق بين من يتقدم من اجل مصرو وجود لندن في امكثرا وهو لم يشاهدها في حياته وانما آمن بها لتوفر الادلة العقلية عن وجودها وبين من رآها رأي العين وعاش فيها زمناً . وتأخذ هذه الرغبة تزداد في التدب تمكناً بمقدار صفاء الروح واستعداد النفس الى الرقي الروحي فيسلكها الحنين والشوق الى معرفة خالقها معرفة ذوقية لا عقلية ولا عقلية ويتلب ان تساور الانسان في هذه الحالة شكوك وظنون وأوهام خفية فيها ينطق بالمعتقدات الدينية دون ان يجد من عقله مرشداً كافياً لحل مضلاتها والخروج من ظلمات الحيرة المترتبة على تلك الظنون والشكوك فيلجأ عند ذلك الى احد المرشدين الى طريق الحق من مشايخ الصوفية بشرط ان يكون هذا الشيخ من المحققين العارفين بالله ممن سبق لهم سلوك هذا الطريق بعينه وهو مأذون من شيخه بالتفسيك فيه ويطلب اليه ان يدخله في عداد اتباعه الآخذين في السلوك الى الله على يديه . ففي هذه الحالة يسمى الطالب (مريداً) أي يريد السير في الطريق وهذه اول المنازل وتسمى نزلة الارادة فيلتقاء الشيخ بالشرح والسرور ويأخذ عليه العهد بالتوبة من ذنوبه والتبري من حوله وقوته واخلاص النية في مقصده وغايته القيام بما يفرضه الطريق على السائر فيه من الاذكار والاوراد المشروعة فضلاً عن القيام بما يستوجبه الدين من اتباع أوامره واجتناب نواهيه ويوصيه بملازمة التقوى في السر والعلانية ومراقبة الله في كل حال ثم يلتفت الذكر وبعضه الاوراد ومن ثم يبدأ سلوك المريد ويسمى عند ذلك (سالكاً) جاءلاً كبره في الدنيا الاشتغال بالصلاة والزهد والرياسة بحسب ما يرسمه له الشيخ فيقبل على الله بصدق النية وتصفية القلب عما سوى الله بحيث يتشبه بذلك الى مقام يسمى بمقام البودية ويظل السالك يجاهد في الطريق نفسه وهواه حتى يتغلب عليها بالاكتار من الضراعة والتذلل والتواضع الى بارئته حتى اذا ما اقبلت عليه الضاية الالهية وتقبلت حاجاته وضرافته ارتفت الرغبة في قلبه فصارت عمقاً له وجباً لذاته العلية وحنا يصل السالك الى مقام في الطريق يسمى (مقام العشق)

ولا يزال هذا العشق يملك قلب السالك حتى يطرد من باطنه كافة الالهية والحذوظ

والرغبات الدنيوية فيقوده هذا الحال إلى مقام ارقى يعرف بمقام (الزهد) حيث تم فيه نصفية القلب وجلاء مرآته جلاءً يجعله بحيث يصير مستعداً لاستقبال ما تنعكس عليها من المعارف القدسية والانوار الالهية بدون واسطة العقل او المنع او اي عمل من اعمال الجسم الفسيولوجية وهنا يواصل السالك سيره الى الله وهو دائم التفكير في معبوده الاوحد لا ينشأ له عيش ولا بطيب له وقت الا اذا اقترن بذكر الله والتسبيح بحمده وعند ذلك تنبتق في قلب السالك انوار تلك المعارف الدنية اي التي تربط على القلب بطريق الالهام الباطني بكيفية تجعل عن الوصف وبها يحصل لديه اذواق وجدانية ينتم بها ما لم يكن يفهمه بمقله من معاني النبوة ويعرف هذا المقام عند المتصوفة بمقام (المعرفة)

ويظل السالك بعد ذلك مواظباً على اذكاره وأوراده التي يتلقاها من شيخه آتياً بعد ان يحسب ما يبدو للشيخ من استحقاق المرید لزيادة الترقى الروحي فيشغل بها اوقاته مفرناً ذلك بالتمزلة والحلوة والافتلال ما أسكن من الطعام والشراب والكلام والنوم الا ما تستوجبه الضرورة والطبيعة مع ملازمة التهجود وقام الليل والناس ينام فسد ذلك تتسلك حالة شريفة علوية روحية ينتقل بها الى المقام الذي يسمى مقام (الوجد والهام) وهو اسمى من مقام العشق اذ يتولى على النفس آثاره من جميع نواحيها

فاذا بلغ التغير هذا المقام السني تواردت على قلبه الانفجارات الربانية والبركات الالهية توارداً زداداً به معرفته الباطنية بصفات الذات اللبية ما يصل به الى الحقيقة المجردة التي كان ينشدها عندما جاء الى الشيخ وهو اذ ذاك مرید يطلب الوصول اليها . وتسمى هذه المنزلة عند ارباب الطريق بمقام (الحقيقة)

على ان وصول السالك الى هذا المقام لا ينهي عنده سلوك الطريق بل انه يظل بعده يرتقي بالروح الى منازل ثلاث أخرى تسمى بمنزلة (الفناء فاللقاء فالبقاء) . أما الفناء ففناء فناء البدن عن حظوظه وعن نفسه في الله بل عن اختياره أيضاً ويكون كما قال سيدي ابو الحسن الشاذلي لبعض مريديه « اذا شئت أن تختار فاختر ان لا تختار وقرر من ذلك المختار ومن فرارك هذا ومن كل شيء الى الله تعالى »

وفي هذا المقام تتجلى عظمة الخالق على قلب السالك فلا يرى الا الله حتى ضمه لا يرى لها أثراً ولا يجد في الوجود من الكائنات الا واجب الوجود وحده وتسبحي آثار جميع الموجودات في وجوده تعالى وتتجلى في فؤاد التغير معنى قوله عز وجل في القرآن مخاطباً عباده المتقين فأنبيوا الى ربكم وأسلموا له . ويتضح له بعد الافاقنة من سكر الوصول الى هذه الحال الرهيبه معنى قول الحلاج ما في الحب الا الله اي ان نفسه تلاشت فلم يعد لوجوده شئ من أثر

وقد وصف الامام جلال الدين الرومي شيخ الطريقة المولوية في آيات له بالفارسية حالة الفناء هذه ابداع وصف وبسوح في ان هذه الايات لم تترجم الى العربية حتى الآن وهذا مضمون ما قاله في ذلك :

«حينما يتولى روح من الجن عجب السبي من الناس تصف صفات الانس فيه الى حد التلاشي ويصبح كل ما يصدر منه من قوون آتياً من وحي ذلك الروح الجنى وسلطانه لا من عقل هذا الاى وتكبيره اذ تلاشى ذاته وقتاً ما يعود فيه خلاله كأنه الجنية ذاتها

«وفي تلك الحالة العجيبة تصح العربية ضد التركي لغة ان كانت العربية لغة ذلك الجنى المستولى عليه ينطق بها دون ان يعرف منها شيئاً وهذا يحدث منه في غير اهام يحب او وحي يلقاه ومتى تاد الانسى الى نفسه وأفاق ، لم يذكر لفظاً واحداً مما قاله وهو تحت ذلك السلطان قذا صح هذا عن الجنية وسلطان استيلائها على لب انسان ، أن يكون خالق الانسان والجان أقل شأنًا وأضعف سلطاناً من الانس والجان ؟ خاشا ان يكون ذلك شأن الاله الواحد القهار »

وفي آيات له أخرى يقول سيدي جلال الدين بالفارسية ما ترجمته بالعربية :

« لو تكلم امامك رجل سكران من أو ما شربه من روح الخمر بكلام غريب قلتم انها الخمر التي تكلم ايتكون لروح الخمر هذا الاثر ولا يكون لروح الله مثله اذا استولى على قلب انسان فيجعله ينطق بكلام ليس بكلامه وعبارات ليست هي عباراته

الا ان القرآن وان جاءنا من بين شفقتي اثبي محمد فقد كفر من قال انه ليس كلام الله

الفناء عند الصوفى

ومقارنته بالفناء لدى البوذيين

وما ينبغي التنبه عليه هنا ان من المستشرقين من الغربيين من ذهب الى حديثه حالة الفناء عند المتصوفين المسلمين بحالة تسمى نيرفانا Nirvana عند البوذيين الوتيفين وهي الحالة التي يتوهم هؤلاء انها نتيجة تدميرهم انفسهم حتى تلاشى وتمحى عنهم فلا تعود النفس الى صاحبها : بدأ اذ يزعمون انه يتقلب فيصبر بوذا بذاته اي إلها آخر تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . ونست بصدد اظهار ما في هذه التزامم الوثنية التوهمية من الضلال والمخالفة للعنايم الدينية الحقة . وإنما أقول ان فناء السالك للتصوف غير هذا إذ معناه قناؤه عن نفسه وصفاته الحيوانية الارضية حباً في ذات الله بالتزام التذويب لا التدمير ومتى تم له هذا الفناء اشرف به عن طور لا يشهد معه في الوجود الا الله حتى ولا نفسه التي بين جنبيه فلا يرى وجوداً إلا لواجب الوجود وحده وأما وجود سواه أي ما كان فهو وجود مجازي غير ذاتي لتبوله الدم والفناء . اما الوجود الحقيقي الذاتي فهو للذات العلية الابدية الدائمة الفناء وحدها

وتلك المشاهدة لا تحصل بحاسة البصر بل تحصل بين البصرة أي بنور ينبعث في القلب انبثاثاً إلهياً إذ تكون الحواس الظاهرة كلها في غيب عن نفسها كما يحدث لمن يدخل على ملك ذي شوكة وسلطان تتسلطه الهيبة والجلال الى خدائه لا يرى شيئاً قط مما في بيت الملك من رياض وغير رياض ولا يرى أحداً ممن يكون جليساً للملك حين دخوله عليه حتى ولا يعلم من أمر نفسه شيئاً حين دخوله على حضرة الملك وذلك لاستيلاء الذهول كله عليه

فهذا الامر مشاهد في امور الخلق فكيف بنا وحديتنا يدور حول الفناء في الخالق . ثم ان السالك بوصوله الى مقام الفناء الذي وصفنا طرفاً منه يتحقق له قول النبي عليه السلام لاصحابه موتوا قبل ان تموتوا أي موتوا عن رؤية وجودكم واختياركم وإعجابكم على حولكم وقوتكم لتعلموا ان الوجود والاختيار هما في الحقيقة وقت على الله الواحد المختار وانكم وان زرعتم الزرع بأيديكم فان الزارع هو الله ولكنكم أسباب وقد يخلق الله بسبب ويخلق ايضاً بلا سبب فهو مسبب الاسباب ورب الارباب وهذا ما ترونه كسفاً وعياناً بعد انقضاء أجلكم في الدنيا ويكون الخلال كما وصفه الله في القرآن بقوله تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)

وبعد ان يفيق الطالب من سكر الفناء ينتقل توطاً الى مقام يسمى مقام الفناء ويعرف عند الصوفية ايضاً بمقام (الوصول) او المشاهدة والمكاشفة ومن ذلك قولهم في مواضع كثيرة من كتبهم فلان الواصل الى الله وهذا المقام حالة وراء العقل المجرد بسجز القلم عن وصفها وتدق الانهام عن تصور كتبها اذ هي بمنزلة عن نطاق المدارك العقلية لانها حالة ذوقية روحية لا تتعلق للقول بها الا بأن تفر بجواز حصولها وعدم استحالتها ومثلها بالنسبة الى المدركات العقلية كمثل ما يؤثر كل وما يشرب بالنسبة الى حاسة البصر فكما ان هذه الحاسة لا تتعلق الا بالمرئيات دون الاذواق اذ ليس ادراك الاذواق من شأنها ولا من واجباتها بل هو مقصور على حاسة الذوق وحدها فبتلك المواجيد الروحية والاذواق الباطنية العقلية لا تدرك بالقول والافهام . وانما تدرك بنور البصرة وطهارة والاباب

وقد تلبث حالة الفناء التي أسلفنا ذكرها مقدار لحظة واحدة او قد تطول أكثر من لحظة وكذلك حالة الفناء او المكاشفة قد تدوم ساعة او أكثر من ساعة حيث يعود السالك بعدها برضوان الله وفضله الى نفسه ولكن ليس الى نفسه الاولى الامارة بالسوء التي كان يجاهد في تهذيبها وصقلها بمهذبات الشرع ويحاول تهريبها ويحاول تهرهه ويسمى في ضيقها ضمن حدود الشريعة وهي تأتي الا التلبه عليه والخلاص من تهرهه . بل يعود الى النفس الراضية المرضية المهذبة الكاملة المطبقة بالايمان الراضية لاحكام الشرع والدين . يعود الآت الى مقام البقاء بالله أي مقام العزة الانسانية المشروحة الصدر السديرة بانوار التنوير والصلاح بيداً عن

الشوائب الشهوانية والمخلوط النفسية وانصفات الدنيا وأضها العجب والزهو والكبر والرياء والتفاوق والخصد والتطنع الى ما في ايدي الناس وفئة ترضى بما قسمه الله من الرزق يعود لبشده فيه الخلق مثلاً حباً على صدق روح الاسلام وتكفله بان يبلغ النفس البشرية اقصى ما تتوق اليه من الكمالات والرتقي الروحي اذ يصير قلبه ملتصقاً بالصدق والمروءة والتخوة والطهارة والصفاء والعتاف والرافة والخوف على عباد الله بل على الخلائق جميعاً حتى الطير والحيوان الاعجم يعضف عليه ويرأف به حتى لقد قال في وصف هذه الحال مولانا العارف بالله سيدي عبيد النبي العربي آياتاً منها قوله قدس الله سره : —

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فرعى للزلزال ودبر لرهبان
ويت لئيران وكعبة قاصد وأنواح توراة ومصحف قرآن
أدين بسدين الحب أنى توجهت ركائبه فقلب ديني وإيماني

وقد أراد سيدي جلال الدين الرومي تصوير حالة الوصول الى الله بعد بلوغ مرتبة الفناء فكتب في كتابه المستوي شراً بالفارسية هذا معناه : —

« نوم الحب انه قد نفي في محبته فلما اعتدى الى بيته بعد طول السير والجهاد وقف بالباب فدفق عليه يطلب الاذن في الدخول فسمع من الداخل صوتاً ينادي : من بالباب ؟ فقال الحب انا بالباب فقال الصوت داخل البيت : كلاً كلاً ان هذا البيت لا يسكني وبع احدأ سواي وظل الباب ملتقاً كما كان فأنطق الحب سليماً فأدرك ان ما حجبهُ دون الاذن له بالدخول الا شعوره بوجود نفسه معه فعاد ادراجه وطاود جهاده ثم رجع بعد طام يقرع الباب فعاد الصوت يسأل من بالباب ؟ فقال انت انت الذي هنا وانت انت الذي هناك وانت وحدك بل، الوجود ولا موجود سواك وهنا فتح الباب على مصراعيه فدلف منه الحب ليعطى «وصول الحبيب»

بهذه الصورة الشعرية الطريفة أمكن للعارف جلال الدين ان يصور لنا كيف ان سلوك سبيل التصوف الحق ينيل النفس المتطهنة اقصى ما تصبو اليه من الرقي الروحي

هذا ايها السادة ما وسع المقام ذكره من الامام ببعض اطراف التصوف في الاسلام اجالاً وعلى ان نتاح لي فرصة اخرى لازيد الموضوع جلاءً وتفضيلاً . واني شاكر لكم حسن استماعكم لي زماناً طويلاً